مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية | ISSN: 2437 - 0363 EISSN 2602-6767 | المجلد 09 / العـدد: 01 (2023)، ص 859- 876

المستشرقون والنصوص التأسيسية للدين الإسلامي (القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة)

Orientalists and foundational text of the Islamic religion (The Holy Qur'an and the Sunnah of the prophet)

معاشو نصرالدين[*1]

[1]جامعة الجزائر 2 أبو القاسم سعد الله بوزريعة nasreddine.maachou@univ-alger2.dz

تاريخ الاستلام: 2023/01/10 تاريخ القبول: 2023/05/28 تاريخ النشر: 2023/06/17

ملخص:

نهدف من خلال ورقتنا البحثية هذه التطرق إلى الاستشراق وقراءته وكذا نظرته إلى النصوص الأساسية التأسيسية للدين الإسلامي، وذهبنا مباشرة إلى المرجعين الأساسين في الإسلام وهما القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وهدفنا هو محاولة الوصول إلى ما ذهب إليه المستشرقون وهم يقرؤون القرآن مع السنة النبوية وكيف حاولوا إلصاق الشُبه بهما ولمن جاء بهما إلى العالمين كافة وهو النبي محمد -ﷺ-.

لنصل في الأخير إلى جملة من النتائج حاولنا من خلالها توضيح قراءة المستشرقين للقرآن والسنة، وكذا الإشارة إلى الأهداف المرجوة من قِبلهم وهم يتطرقون لهذين المصدرين الأساسين في الإسلام وما كانوا يريدونه من خلال توجيه سهام النقد لهما.

كلمات مفتاحية: القرآن، السنة، الإسلام، النقد، الاستشراق.

Abstract:

Through our research paper, we aim to address Orientalism and its readings, as well as its view of the basic foundational texts of the Islamic religion. We addressed the two main references in noble Qur'an and the noble prophet's Sunnah. Our goal is to reach what the orientalists went through while reading the Qur'an and the prophet's Sunnah and how they tried to create suspicions about them and their messenger, the prophet Muhammad; peace be upon him.

In the end, we reached several results through which we tried to clarify the orientalists' readings of the Qur'an and Sunnah, as well as pointing out their desired objectives by

addressing these two fundamental sources of Islam and what they wanted by their "slings and arrows".

Keywords: Quran; Sunnah; Islam; Criticism; Orientalism.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

تعتبر الدراسات الاستشراقية للدين الإسلامي واحدة من بين الدراسات البارزة في عصرنا الحالي وهي تتناول هذا الدين بالقراءة والتأريخ والتحليل والنقد، فلقد قام العديد من البحّاثة الغربيون بوضع قراءات تأريخية للإسلام ونصوصه التأسيسية، وما يُقصَد بالنصوص التأسيسية هنا هي: القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والتي يعتمد عليها المسلمون في مرجعيتهم الدينية؛ وعلى الرغم من أن المستشرقين كانوا قد تطرقوا إلى الإسلام ككل، وكذا العالم العربي والإسلامي جملة وتفصيلا بالدراسة والتحليل، إلا أننا سنحاول في ورقتنا البحثية هذه التطرق إلى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة باعتبارهما المصدرين الأولين والأساسين عند المسلمين كما أشرنا.

لقد وضع المستشرقون دراسات عديدة ومتعددة في قراءة القرآن والسنة جلّها ومعظمها كانت كمحاولة لنقد هذين المصدرين الأساسيين في الإسلام، وقد تجد دراسات أخرى هي دراسات تأريخية، لكن الهدف من وراء ذلك لم يكن التاريخ والعلم فقط، وإنما لذلك أهداف أخرى بإمكان الباحث الكشف عنها من خلال تصفحه وتعمقه داخل دراسات المستشرقين وهم يتطرقون للقرآن والسنة.

من خلال ما سبق انتابتنا عدة إشكاليات واستفهامات يمكننا أن نطرحها كالآتي: ما هي نظرة الاستشراق والمستشرقين للقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة؟ وما هي الطريقة التي اعتمد عليها الاستشراق والمستشرقون وهم يتطرقون للقرآن الكريم والسنة الشريفة؟ هل كانت فعلا قراءاتهم ودراساتهم تلك قراءات علمية؟ أم أن لذلك أهدافا أخرى؟

مُحاولةً منا الإجابةُ على الاشكالياتِ المطروحةِ سلفا، أردنا أن نغوص وبطريقة مباشرة داخل القراءة الاستشراقية للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، لكن قبل ذلك حاولنا أن نقوم بقراءة تعريفية مفهومية للاستشراق حتى نوضّح في بداية الأمر المقصود بهذا المصطلح، فكانت نقطتنا الأولى وببساطة تعريف للاستشراق، ارتأينا من خلالها أن نضع له تعريفا عاما وشاملا حتى يتّضح مفهومه، معتمدين في ذلك على التعاريف الفكرية وكذا الفلسفية منها، لنذهب بعد ذلك ومباشرة إلى الاستشراق والقرآن الكريم وكيف ذهب أو نظر وأرّخ المستشرقون لهذا الكتاب العظيم، لتأتيَ بعد ذلك نقطتنا الأخرى وهي الاستشراق والسنة النبوية الشريفة وكيف هي من منظور الاستشراق والمستشرقين، غير ناسين أو متجاوزين داخل نقطتنا هذه النبي الأكرم محمد -ﷺ- ذاكرين الأوصاف التي وصف بها المستشرقون هذا النبي العزيز، لنصل في الأخير إلى خاتمة لعَمَلِنا هذا محاولين أن نجعلها كحوصلة لما سبق ذكره، مع ذكر بعض التوصيات والنقاط الهامة للرجل المسلم حيال قراءات ودراسات كهذه، والتي قام بها الاستشراق والمستشرقون وهم يتطرقون للقرآن والسنة والإسلام ككل.

2. تعريف الاستشراق:

سنعتمد في تعريفنا للاستشراق هنا على العديد من الباحثين والمفكرين محاولين بذلك أن نُعطِيَ له تعريفا عاما وشاملا، وسنحاول في ذلك أن نركّز على التعاريف الفكرية والفلسفية لمفهوم الاستشراق، فرغم التعاريف المتعددة لمصطلح الاستشراق والمستشرقين من لغوية واصطلاحية، إلا أن ما يهمنا في هذا المقام هو معناه الفكري من أجل توضيح ما نحن بصدد التطرق له وعلاقته بمفهومه، فما نريد التطرق له هنا هو الاستشراق والمستشرقون وما قاموا به من أعمال درسوا بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وكذا محاولة اكتشاف علاقة هذه الأعمال بالقرآن والسنة الشريفة بالتراث والدين الإسلامي، وعليه وكتعريف عام للاستشراق نقول: "طلب علوم الشرق وآدابه، واستشرق أي طلب وأراد تعلُم ودراسة علوم الشرق وآدابه والمستشرقون هم قوم من غير الشرقيين أو هم الغربيون الذين تخصصوا في

دراسة الشرق من كافة جوانبه؛ علومه، تاريخه، أديانه، شعوبه، لغاته وآدابه ...الخ، لأهداف مختلفة، ودوافع شتى" (محمد، 2000، صفحة 11).

أما إذا أردنا تقسيمه من تعريف لغويٍ وآخر اصطلاحي فإننا نقول أن "الاستشراق لغة: مشتق من كلمة وهي جهة شروق الشمس، وشرَّق أخذ في ناحية الشرق. والسين في كلمة الاستشراق يفيد الطلب أي طلب دراسة ما في الشرق؛ أما اصطلاحا: فهو علم يدرس لغات شعوب الشرق وتراثهم وحضارتهم ومجتمعاتهم وماضيهم وحاضرهم" (فوزي، 1998، صفحة 30). نلاحظ من خلال التعريف اللغوي أعلاه أن الاستشراق جاء من لفظ الشرق وهو من فعل «شرق»، أما التعريف الاصطلاحي فإنه في اللغة العربية عندما تتدخل الحروف -ألف، سين، تاء- فهذا يعني الطلب، فعندما نقول شرق ونضيف لها تلك الحروف تصبح استشراق أي طلب الشرق ومنه طلب علوم الشرق كأن نقول مثلا: استعان أي طلب المعونة.

إن كلمة استشراق هي كلمة جديدة على اللغة العربية فلو بحثت عنها في المعاجم العربية القديمة فإنك لن تجدها، وقل الأمر نفسه على اللغات الأخرى الإنجليزية والفرنسية، فكما "هي مولّدة عصرية في اللغة العربية فهي كذلك في اللغة الأجنبية فقد ظهرت كلمة (مستشرق) Orientalist، في إنجلترا سنة 1779م، وكلمة Orientalist، في فرنسا سنة 1799م. ثمّ أدرجت كلمة الاستشراق في قاموس الأكاديمية الفرنسية Dicde Facademie Francese عام 1938م" (فؤاد، 2001، صفحة 16).

وعند تقسيم كلمة Orientalism فإن "البحث اللغوي الأصلي لكلمة (Orient) في اللغات الأوروبية الثلاث، المستمد من الأصل اللاتيني، يوضح أن معناها يتمركز حول طلب العلم والمعرفة والإرشاد والتوجيه. فاستخدام كلمة بهذه الدلالة اسما لعلوم تبحث في منطقة معينة تعني اعترافا بأن العلم والمعرفة والإرشاد كان يطلب من هذه المنطقة" (النعيم، 1997، صفحة 16)، فنصل من هذا التعريف للاستشراق بصفته مترجم من كلمة Orientalism،

وOrient تعني طلب العلم والمعرفة يصبح الاستشراق بهذا طلب العلم والمعرفة لناحية الشرق، أو طلب معرفة العالم الشرقي علميا ومعرفيا وثقافيا وتراثيا ...إلى غير ذلك.

أما ملك بن نبي فهو يقول في بداية كتابه "إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث": "يجب أولا أن نحدد المصطلح: إننا نعني بالمستشرقين الكتّاب الغربيين الذين يكتبون عن الفكر الإسلامي وعن الحضارة الإسلامية" (نبي، 1969، صفحة 5)، فيكون هنا الاستشراق مجمل ما يُكتب حول العالم العربي والإسلامي وما يختص به من فكر وحضارة دامت لقرون عديدة.

فالاستشراق إذن يمثل المعرفة العلمية حول العالم الشرقي وكل ما كُتب ويُكتب حول هذا العالم، ويكون ذلك من قِبَل باحثين ومؤرخين من خارج الشرق، أي كتاب وباحثين غربيين لا ينتمون لهذا العالم، ويُشترط في ذلك شروط معينة كالتحكم في اللغات الشرقية والاطّلاع المحكم حول تاريخ هذا العالم ولغاته وثقافاته ودينه وتراثه ...إلى غير ذلك، فكل عمل يقوم به شخص غير شرقي ينتمي إلى العالم الغربي ويدرس العالم الشرقي يدخل ضمن ما نُطلق عليه لفظ الاستشراق.

بواسطة هذا يُصبح الاستشراق كما قال عنه إدوارد سعيد "هو المبحث الذي استطاع الغرب بفضله (ولا يزال) أن يتناول الشرق بالبحث العلمي بصورة منتظمة، وأن يبذل فيه جهوده في الاستكشاف وفي العمل أيضا" (سعيد، 2006، صفحة 142).

إن هذا التناوُل الغربي للشرق وعلومه وحضارته ودينه وثقافاته تختلف النظرة إليه من باحث لآخر، فليس كل الباحثين يرون ذلك العمل الضخم الذي اتّسم به الاستشراق هو عمل علمي عظيم، بل هناك من يرى غير ذلك، ويرى أن أعمال المستشرقين كان الهدف من ورائها معرفة العالم الشرقي معرفة حقيقية من أجل تلبية أغراض معينة لفائدة ومصلحة عالمهم وهو العالم الغربي، وتختلف هذه الأغراض من سياسية واقتصادية واستعمارية

وتبشيرية وتنصيرية ..إلى غير ذلك؛ من هنا فإننا سنجد داخل كتب المشتغلين على الاستشراق تعريفات عديدة ومتعددة لهذا الأخير، ويكون ذلك بحسب توجُّه المعرِّف له، "فبينما يرى البعض أنه ميدان علمي من ميادين الدراسة والبحث، يتّجه آخرون إلى اعتباره مؤسسة غربية ذات أهداف متعددة، في حين يرى بعض الباحثين أنه ظاهرة طبيعية تولّدت عن حركة الصراع بين الشرق والغرب، أو، في فهم أضيق نطاقا، بين الإسلام والمسيحية" (الزيادي، 1998، صفحة 15)، وهنا نجد أن مفهوم الاستشراق مختلف، فهناك من يراه بأنه مجال فكري قام بدراسة العالم الشرقي دراسة علمية، وهناك من يراه وسيلة معرفية كان الهدف من ورائها التسلّط والاستعمار، وهناك من يرى أنه وسيلة لمحاولة تحطيم الإسلام والمسلمين وزرع الشكوك في نفوسهم تجاه دينهم الإسلامي، إلى غير ذلك من الرؤى المختلفة تجاهه.

نجد بهذا أن "الذي رأى الاستشراق من زاوية معرفية قال: إن الاستشراق هو معرفة الغربيين بالعالم الشرقي، أو هو اتجاه الغربيين للبحث أو التخصص في الشرق، ومن رآه من زاوية سياسية قال إن الاستشراق هو جهود الغربيين لمعرفة الشرق والسيطرة عليه، أو هو الأسلوب الغربي للسيطرة على الشرق" (الزيادي، 1998، صفحة 18). وهنا تتحدد صعوبة وضع تعريف دقيق ومحدد للاستشراق والمستشرقين وإنتاجاتهم، وهذا معروف في البحث العلمي في تحديد المفاهيم والتعريفات للمصطلحات، وقل ذلك على مفهوم الاستشراق، "فهو يؤخذ بعدة مفاهيم متداخلة ومتكاملة في آنٍ واحد، فهو أحيانا يُراد به ذلك العلم الذي تناول المجتمعات الشرقية بالدراسة والتحليل من قِبَل علماء الغرب. وأحيانا يُقصد به أسلوب للتفكير يرتكز على التمييز المعرفي والعرقي والايديولوجي بين الشرق والغرب. ومرة أخرى يحدد مفهومه بالناس الذين يقومون به ونعني بهم ‹‹المستشرقين›› وهم الكتّاب الغربيون الذين كتبوا عن الفكر والحضارة الإسلامية" (الحاج، 2002، صفحة 20)، حتى إنه هناك من الباحثين من يرى أن التعريف اللائق بالاستشراق هو ذلك "الاهتمام بأحوال الشرق، والكشف عن عقليات شعوبه، وأسراره وأمزجته، وحضارته وتلمُس مواضع القوة والضعف

لهذه الشعوب توطئة لحملات التبشير وموجات الاستعمار، ثم بعد انحسار الاستعمار المباشر أصبح الاستشراق يمهّد الأرضية الصالحة للاستعمار الاقتصادي والسياسي والثقافي لشعوب الشرق بصفة عامة، وشعوب الشرق الأدنى بصفة خاصة" (الحاج، 2002، صفحة 20).

هذه جملة من التعاريف والنظرات المختلفة للاستشراق ومفهومه، فهناك من الباحثين من حمّل المسؤولية للاستشراق في تدعيمه للاستعمار ودلّه على الطريق الصحيح في الاستيلاء على دول الشرق الإسلامي، وهناك من ربطه بحركات التبشير داخل المجتمعات الإسلامية، وهناك من ربطه بالكنيسة وحركات التنصير التي كانت تسعى إليها ورأى أن البدايات الحقيقية للاستشراق كانت من صُلب الكنيسة، أي أنه كان دينيا قبل أن يتطور ويتحول وتتّسع أغراضه ونواياه لتتجاوز ذلك البُعد الديني إلى أبعادٍ أخرى.

وبالحديث عن بداياته فهي مختلفة باختلاف الباحثين، هناك من يُرجعه إلى غاية ما قبل التاريخ، أي إلى غاية الحقبة اليونانية والعلوم التي كانت تستقيها من العالم الشرقي آنذاك حيث كانت بينهما تبادلات تجارية جعلت من اليونانيين يؤسسون فلسفة كبيرة حينها، وهنا نجد البعض يُرجع ذلك نتيجة احتكاكهم بالهنود والبابليين والصينيين والمصريين القدامى، وهناك من يُرجع ذلك إلى العصور الوسطى في أروبا وكيف كانت تأخذ العلوم من الحضارة الإسلامية إلى أن وصلت إلى العصر الحديث وأضافت لها وكانت سببا في تطورها، إلى غير ذلك من الرؤى، لكن الغرب المسيحي وحسب إدوارد سعيد فإنه يعتبر "أن الاستشراق قد بدأ وجوده الرسمي بالقرار الذي اتخذه مجلس الكنائس في مدينة فيين الفرنسية بإنشاء سلسلة من كراسي الأستاذية للّغات العربية، واليونانية، والعبرية، والسريانية في باريس، وأكسفورد، وبولونيا، وأفينيون، وسالامانكا" (سعيد، 2006، صفحة 110).

كانت هذه بعض التعاريف لمفهوم الاستشراق، ولاحظنا كيف هي مختلفة ومتنوعة باختلاف الباحثين في هذا الموضوع وتوجهاتهم، فلو قرأت تعريفا لمفكر ذو توجه غربي متأثرٍ

سواء بالمستشرقين وقراءاتهم، أو بالمناهج الغربية وعلمائها أو فلاسفتها ونظرياتهم، فإنك تجده يشيّد بالاستشراق ويمدح إنتاجاته، حتى وإن انتقده، فإن نقده ذلك يكون نقدا إما للمنهج الاستشراقي وكيفية تأريخه وقراءته للإسلام والتراث الإسلامي، أو لقصورٍ معين يكون ضمن الإطار المعرفي على سبيل المثال، وليس نقدا ذاتيا للاستشراق في صلبه وأعماقه، ولكن هناك من الباحثين من يرى غير ذلك تماما ويتهم الاستشراق بكل أنواع الاستعمار والتسلّط والتحريف للدين والتراث الإسلامي، فالاستشراق كان قد تطرّق لكل شيء له علاقة بالإسلام، وأهم ذلك القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، وهذا الأمر هو ما نريد أن نعرج عليه في نقاطنا الموالية، بغية الكشف عن علاقة الاستشراق بالنصوص الأساسية والتأسيسية للدين الإسلامي من قرآن وسنة نبوية شريفة.

3. المستشرقون والقرآن الكريم:

يعتبر القرآن الكريم المصدر الأول والأساسي في الإسلام، ويعتبره المسلمون كلام الله تعالى الموحى به إلى نبيه محمد -ﷺ-، كما أنهم يعتبرون كذلك أن القرآن لم يُصِبه التحريف فهو كلام الله المنقول إلينا الذي لم تَشُبْهُ شائبة، فهو لا يأتيه الباطل لا من بين يديه ولا من خلفه، كما يعتبر المسلمون القرآن المصدر الأول للتشريع وأن اتّباعه والانقياد له ولما جاء به من أوامر ونواهي أمر لا جدال ولا نقاش فيه، هذا الأمر دفع ببعض المستشرقين إلى تصويب سهامهم مباشرة إلى هذا الكتاب العزيز باعتباره المصدر الأول والأساسي عند المسلمين، محاولين بذلك تلفيق الشُبَه ضده وإلصاق تهم عديدة عليه، فهم يعلمون أن المسلمين إذا ما أصابهم شك في القرآن الكريم فإن كل ما يتبقى من الدين الإسلامي يكون سهل المنال ويذهب هباء منثورا كأن شيئا لم يكن، ولفهم هذا الكتاب والتعرّف عليه من أجل بلوغ الغايات والأهداف التي كانت مرجُوة عند المستشرقين، "كان من الضروري قيام المستشرقين خلال بدايات الاستشراق بترجمة معاني القرآن من اللغة العربية إلى اللغات الغربية حتى يعرف الباحثون والعلماء الغربيون تعاليمه" (زماني، 2010، صفحة 324).

يُذكر أن أول ترجمة للقرآن الكريم كانت سنة 1143م في دير كلوني على يد الانجليزي روبرت أوف كيتون **Robert Of Ketene** برعاية الراهب بطرس **Boutros**، ولقد تلقت هذه الترجمة اعتراضات عديدة خصوصا من قبل الرهبان خوفا منهم أن تنتشر وتُساعد غير المسلمين في التعرُّف على بعض حقائق الإسلام. كما أنهم كانوا إذا ما تعرّفوا على حقيقة القرآن وعلى ما يدعو الناس إليه من عبادات وطاعات ومعاملات وأخلاقيات يأمر الله سبحانه وتعالى عباده بها، "عندما يتبينون ذلك كله يحاولون طمس هذه الحقائق، وإبعاد المسلمين عنها، ويسارعون إلى أولي الأمر في بلادهم من المستعمرين القدامى أو الجدد، ويوحون إليهم بأن هذا القرآن كتاب خطير، لأنه اشتمل على مبادئ تقيم الدنيا وتُقعدها، وإذا تحقق فهمها وتطبيقها ساد أهله العالم كله وتحكموا في مصيره" (زقزوق، صفحة 100).

لم يكتف المستشرقون بالترجمة فقط، وإنما جاء بعد الترجمة كتبا أخرى أُلّفت حول القرآن الكريم، ففي "سنة 1273م نشر وليم الطرابلسي المقيم الدمينيكاني في عكا كتابا وصف فيه القرآن الكريم بأنه من عمل فئة من اليهود والزنادقة النصارى (...) وفي سنة 691/1291هـ أصدر القس الدومينيكاني ريكاردوس سانتاكروز كتابا في نقض القرآن. وفي سنة 854/1450هـ القس جون أوف سكوفيا إلى قراءة للقرآن الكريم التي سننتهي لا محالة إلا إثبات كونه متناقض مما يدلل على أنه صناعة بشرية وليس وحيا إلهيا. وقد تتابعت أمثال هذه الكتابات ذات النزعة العدوانية تجاه القرآن وظهرت تراجم مشوهة وملفقة له" (فوزي، 1998، صفحة 60)، زيادة على هذه المؤلفات هناك مؤلفات أخرى كذلك ففي "سنة 865هـ/1460م نشر الكاردينال نيقولا كتابه الموسوم (دراسة تحليلية للقرآن) وصف القرآن بأنه لا يحتوي إلا على تعاليم هرطقية نسطورية وتحريفات يهودية للتوراة وتلفيقات حول المسيحية. وأن مادته جُمعت بعد وفاة محمد -ﷺ- ولذلك فهو كتاب موضوع ومن صنع البشر" (فوزي، 1998، صفحة 61)، إضافة إلى ذلك كلّه، تظهر كذلك ترجمات أخرى حتى مع عصر النهضة وهي متعددة كترجمة المستشرق روس وسيل **Ross Wssil** ولروديل **Lrudil** وبيل **Bill**

وبلاشير **Blachère** وغيرهم، ولا نفوت بالذكر هنا الدراسات القرآنية للألماني ثيودور نولدكه **Theodor Noldeke** ومعه اليهودي المجري إجناتس جولدزيهر **Ignàc Goldziher**.

كان هذا عن ترجمة القرآن وبعض ما أُلّف حوله من كتبٍ من قِبل بعض المستشرقين، أما عن مصدره فهناك من المستشرقين من يرى أن مصدر القرآن هو التوراة والإنجيل، وزعمهم أن محمدا ﷺ كان تلميذا عند اليهود والنصارى، وكانوا يرون أن النبي ﷺ قد استقى القرآن من الديانتين اليهودية والمسيحية، وبنوا ذلك على افتراضات كزعمهم "أن اليهودية والنصرانية لم تكونا مجهولتين في بلاد العرب؛ [و] أن مكة المكرمة عرفت اليهودية والنصرانية بحكم كونها مستقرا للإتّجار بين جنوب بلاد العرب وشمالها حيث كان لهما أكبر الأثر على محمد ﷺ [و] زعمهم أن من العرب الجاهلين من كان يعرف أفكارا يهودية أو نصرانية ‹‹كأمية بن أبي الصلت›› و‹‹ورقة بن نوفل›› وغيرهما حيث كان لهم تأثير كبير على محمد ﷺ" (رضوان، 1992، صفحة 239).

لا أحد يُنكِر التطابق بين التوراة والإنجيل والقرآن في العقائد والتوحيد، فقول الله تعالى في القرآن الكريم ﴿**إِنَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِه**﴾ [النساء 163]، لدليل على وجود تطابق بين الإسلام المنزّل على محمد عليه الصلاة والسلام والنبيين قبله، وقوله تعالى: ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا الله وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوت**﴾ [النحل 36] لدليل آخر على أن كل الرسل والأنبياء منذ آدم عليه السلام إلى النبي محمد ﷺ إنما بُعثوا لهدف واحد وهو توحيد الله جل في علاه، وهذا يدُّل على التطابق بين الشرائع السماوية ومنه الكتب التي تمثلها، لكن المزعم الذي يزعمه المستشرقون أن النبي محمد ﷺ قد قام بالتلفيق فقط من التوراة والإنجيل هذا هو الخطأ والكذب على النبي محمد عليه الصلاة والسلام، لأن الخطأ "الذي وقع فيه أكثر المستشرقين هو أنهم متفقون على أن القرآن ليس من عند الله، وأن النبي محمد ﷺ استقى مادة القرآن من الأحبار والرهبان الذين كان يتلقى عنهم المعلومات الدينية من كتب العهدين القديم والجديد، ومن مصادر أخرى غيرها" (حسين، 2014، صفحة 40).

ممن ذهب إلى ذلك من المستشرقين على أساس أن الرسول ﷺ قد استقى القرآن الكريم من التوراة والإنجيل نذكر على سبيل المثال المستشرق "مكسيم رودنسون في كتابه "محمد" (...) ويرى ريتشارد دبل مؤلف كتاب "مقدمة القرآن" أن النبي ﷺ قد اعتمد في كتابته للقرآن على الكتاب المقدّس، وخاصة على العهد القديم في قسم القصص، فبعض قصص العقاب كقصص عاد وثمود مستمد من مصادر عربية، ولكن الجانب الأكبر من المادة التي استعملها محمد ليفسر تعاليمه ويدعمها قد استمده من مصادر يهودية، ونصرانية" (محمد، 2000، صفحة 205).

يترتب عن القول بأن مصدر القرآن هو العهدين القديم والجديد تكذيب للمصدر الحقيقي للقرآن الكريم وهو الوحي؛ والقول أن النبي محمد عليه الصلاة والسلام قد استقى القرآن من التوراة والإنجيل يترتب عنه كذلك القول أن هذا القرآن هو من تأليفه وليس كلام الله تعالى الموحى به، فلقد "تعمّد أكثرهم إنكار المصدر الإلهي للوحي، وقالوا إنه من تأليف محمد أو من تلفيقه. ولقد أظهروا جهلا فاضحا بحقيقة الوحي خارج الطرق الكسبية للعلم، وفوق الإلهامات النفسية الذاتية" (الشرقاوي، 2016، صفحة 128).

من بين الأمور التي أراد أو حاول المستشرقون استغلالها من أجل التشكيك بصحة القرآن الكريم ومحاولة تكذيبه أو الحط من قيمته، أو القول أنه من صنع بشر وليس بوحي إلهي وهي محاولتهم "إظهار ناسخه ومنسوخه، والتفرقة بين خصائص مكية ومدنية، وإيراد الشبهات على محكمه ومتشابهه، كل ذلك من أجل معارضته من أساسه، ونقض أحكامه" (الحاج، 2002، صفحة 256)، فالحديث عن الناسخ والمنسوخ والمتشابه منه يوصِلهم إلى تكذيب صحة القرآن، على أساس أن الله عزّ وجلّ كان قد أنزل القرآن من أجل البيان والإيضاح للبشر حقيقة التوحيد والعبادة والدّين، فلِما يُنزّل المتشابه وهو يريد التوضيح، هذه يعتبرونها كحجج لنقد القرآن الكريم وإبطال صحته ومصداقيته.

ينادي المستشرقون بالقول "بأن القرآن صنعة بشرية يعكس ظروف العرب الاقتصادية والسياسية آنذاك ومن هنا فهو متناقض ومتقلب لأنه من صنع البشر!!. وقد نتج عن ذلك محاولات بعض المستشرقين أمثال نولدكه وشير نفر وغريم وشوالي وبلاشير وبيل وجولدزيهر ترتيب سور القرآن الكريم حسب تسلسل أحداث التاريخ الإسلامي" (فوزي، 1998، صفحة 63)، فربطهم القرآن بالأوضاع السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية والمعيشية وقت نزول القرآن الكريم على النبي محمد ﷺ جعلهم يدرسونه دراسة وضعية ويربطون سور القرآن بحسب الأحداث حينها، يمكننا في هذا الصدد أن نرى ما كتبه المستشرق نولدكه في كتابه الكبير (تاريخ القرآن).

يشعر بعض المستشرقين وخصوصا المطّلعين على حقيقة القرآن الكريم بالخوف من هذا الكتاب العظيم، فهو يمثّل بالنسبة لهم خطر عليهم وعلى دولهم وديانتهم ومجتمعاتهم، "وقد كان للاستشراق دوره في التحذير من خطورة القرآن على العالم الغربي، فقد تكفّل بالكشف عن أخطار القرآن طائفة من المستشرقين الذين أخضعوا بحوثهم العلمية للأهواء الشخصية أو الأهداف السياسية والدينية، فأعماهم عن ذلك عن الحق وأضلهم عن سواء السبيل" (زقزوق، صفحة 100).

حتى لفظة «قرآن» لم تسلم من أبحاث المستشرقين ودراساتهم الذين حاولوا التأكيد على أن أصل الكلمة غير عربي؛ ويشترك في هذه النقطة ثلّة من المستشرقين، فها هو نولدكه ومونتجمري وات [**Montgomery Watt**] الانكليزي يريان أن كلمة قرآن هي من الكلمات الدينية التي أدخلتها المسيحية في شبه الجزيرة العربية. وهناك أيضا المستشرقيْن شوفالي [**Chevalley**] وولهاوزن **[Wellhausen]** يجدانها كلمة مستعارة من السريانية أو العبرية، وكذلك يرى المستشرق الفرنسي بلاشير أنها مأخوذة هو أيضا من السريانية، أما الألماني الآخر عمانويل كلير هلز **[Emmanuel Cler Halz]** فإنه يرى بأن أصلها يعود إلى العبرية (الغزالي، 2008، صفحة 113).

كانت هذه بعض الرؤى للمستشرقين تجاه القرآن الكريم، ورأينا كيف حاولوا إلصاق الشُبه بهذا الكتاب العزيز، وكذا توجيه سهام نقدهم له من أجل إيهام الناس أن هذا الكتاب هو كتاب من صنع بشري مستقى من التوراة والإنجيل، وأنه لا علاقة له بالوحي الرباني، ومحاولتهم جعله ككتاب مفعم بالتناقضات والمغالطات، على الرغم من أنه في حقيقة الأمر أن المغالطات هم من اتّصفوا بها وهم يتعرضون للقرآن العظيم.

4. المستشرقون والسنة النبوية الشريفة :

نذهب الآن إلى السنة النبوية الشريفة، والتي هي بدورها ليست ببعيدة عن القرآن الكريم في محاولةٍ من المستشرقين انتقادها وتكذيبها وتحطيمها. تعتبر السنة النبوية الشريفة المصدر الثاني بعد القرآن الكريم في الإسلام، والتي يعتمد عليها المسلمون في تأسيس تشريعاتهم الدينية، وتتمثل السنة النبوية الشريفة في الأحاديث المروية عن النبي محمد ﷺ وكذا أفعاله وكل ما هو متوارث عنه عليه الصلاة والسلام، وعليه فإن الحديث عن السنة الشريفة أو عن الأحاديث النبوية يحتّم بالضرورة الحديث عن الرسول محمد ﷺ، والسنة النبوية الشريفة هي كذلك واحدة من بين المواضيع التي تطرق لها المستشرقون ووجهوا لها سهامهم بانتقادها وحتى تكذيبها كما أشرنا قبل قليل، وللعلم فإن تكذيب السنة أو الأحاديث النبوية باعتبارها المصدر الثاني عند المسلمين لا يعني بالضرورة تكذيب المصدر الأول في الإسلام وهو القرآن الكريم، ولكن هذا الأمر قد يجعله البعض كوسيلة أو ذريعة من أجل الوصول إلى القرآن وتكذيبه وإلصاق الشُبه به، ولا نظن أن هذا الأمر لا يصلُح أو يصدُق، لأن تكذيب السنة في حقيقة الأمر يقتضي تكذيب القرآن فكلاهما وصل إلى المسلمين عن طريق رجل واحد وهو النبي محمد ﷺ، اللهم إلا إذا جاء أحدهم وقال أن القرآن حقيقي وصحيح ولكن السنة والأحاديث النبوية الشريفة لُفِظت وجاءت بعد موت النبي -عليه الصلاة والسلام- ووضعها المسلمون بعده من أجل خدمة أغراضهم ومصالحهم الشخصية، وهذا الأمر فيه نظر، فبعض من المستشرقين من وصل به الأمر إلى نفي الأحاديث كلّها بصفة

عامة، وهذا يعني أنه لا وجود ولا لحديث صحيح مرويٍّ عن الرسول -صلى الله عليه وعلى آله وسلم-.

لا أحد يُنكِر الصلة الوطيدة بين القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، كما أنه لا أحد يُنكِر المتلفظ الأول بهما وهو النبي محمد ﷺ، فمن صدّق صدّق الاثنين، ومن كذّب كذّب الاثنين، فكلاهما لهما ناطق واحد، وكلاهما وصلاننا عن طريق التواتر المتعارف عليه من قبل كل من جاء بعد النبي ﷺ، كما أن السنة النبوية الشريفة لم تنطق من فراغ من قِبَل الرسول -عليه الصلاة والسلام-، كيف، وهو الذي قال عنه عز من قائل: «لا ينطق عن الهوى»، ورغم ذلك إلا أن بعض المستشرقين مثل تشكيكهم في صحة القرآن الكريم، نجد لديهم نفس الشيء وهو التشكيك كذلك في سنة النبي الكريم صلوات ربي وسلامه عليه، بل يتجاوزون ذلك إلى محاولة تحطيمها وتدميرها بحيث لا يُصبح لها أساس من الصحة، و"بعض رجال المؤسسة الاستشراقية المتجافين عن أبسط قواعد البحث العلمي المرعية وأصوله المقررة، حاولوا -في هجمة منكرة فاضحة- التشكيك في السنة، ولو يألوا جهدا، ولم يدّخروا وسعا في ذلك، بغية هدمها ونقضها وطمسها، وهي محاولات مأجورة ومشكورة من قبل رجال التبشير والاستعمار معا" (الشرقاوي، 2016، صفحة 149).

وفي سيرته -ﷺ- فلقد خاض الكثير من المستشرقين فيها، "ولم ينصف معظمهم الرسول ﷺ، فرموه بالكذب والدجل والجنون إلى غير ذلك من تهم ومفتريات، كما أن أكثرهم نظر إلى السيرة المطهرة والسنة المشرفة بعين الارتياب والتشكيك" (الشرقاوي، 2016، صفحة 158)، ويمكننا أن نطّلع في هذه النقطة على مستشرقين كُثر ممّن وصفوا النبي محمد -ﷺ- بصفات استهزائية كجوستاف فيل [Gustav Phil] في كتابه عن محمد النبي (1843م)، أليوس سبرنجر [Alyouss Springer] في كتابه عن حياة محمد وتعاليمه (1861م)، تيودور نولدكه في كتابه عن تاريخ القرآن (1909م)، ماكدونالد [Macdonald] -أستاذ المستشرق جب- [Gibb] (الشرقاوي، 2016، صفحة 158-159) وغيرهم كثير بالإضافة إلى إنكارهم للوحي عليه.

لقد قام المستشرقون بالتشكيك في الرسالة النبوية وبالوحي من أساسه، ويرون أن النبي محمد ﷺ لم يكن يوما رسولا من عند رب العالمين، "ويتخبطون في تفسير مظاهر الوحي التي كان يراها أصحاب النبي ﷺ أحيانا، وبخاصة عائشة أم المؤمنين ﷺ، فمن المستشرقين من يرجِع ذلك إلى ‹‹صرع›› كان ينتاب النبي ﷺ حينا بعد حين، ومنهم من يُرجعه إلى تخيّلات كانت تملأ ذهن النبي ﷺ، ومنهم من يفسرها بمرض نفسي، وهكذا" (السباعي، صفحة 26) يتّهم المستشرقون النبي محمد ﷺ بتهمٍ عديدة كالجنون والصرع وغير ذلك من التهم الباطلة التي لا تليق به عليه الصلاة والسلام، وكل هذا يعتبر كوسائل تقود وبلا شك طبعا لتكذيب هذا النبي الأكرم وتكذيب ما جاء به من وحي وأوامر ونواهي كلها تُستقَى من سنته -ﷺ- التي كان يعلّمها لأصحابه رضوان الله عليهم أجمعين، وهم تركوها لنا غضة كما علمهم إياها رسولنا عليه الصلاة والسلام فعلموها لتابيعيهم ومن ثم تابعيهم لتابعي تابعيهم وبقيت متواترة لنا إلى يومنا هذا، وكان يُنظر إليه كذلك "باعتباره نبيا ينشر تنزيلا زائفا، فلقد أصبح أيضا جماع صور الفساد، وهي النظرة المستقاة، منطقيا، من اعتباره دجّالا" (سعيد، 2006، 128).

وكما قلنا آنفا أن الحديث عن السنة النبوية الشريفة يعني بالضرورة الحديث عن النبي الأكرم -ﷺ- الذي قام المستشرقون بتكذيبه وتكذيب رسالته والوحي الذي أُنزِل عليه، و"لما كانت رسالة المصطفى ﷺ ثابتة بالوحي فإن المستشرقين لم يتقبلوا هذا الأمر بل أنكروه تماما؛ وزعموا أن محمدا ﷺ ادعى ذلك ادعاء وأن مسألة الوحي مسألة غير مرئية ومستحيلة وكل ما في الأمر أن محمدا على حد تعبير (جب) اعتقد أنه يوحى إليه نتيجة لبعض التأثيرات الخارجية" (فؤاد، 2001، صفحة 158).

إن إنكار المستشرقين للوحي كان إنكارا لنبوة محمد ﷺ على الرغم من "أن الرسالتين السابقتين لم تثبت واحدة منهما إلا عن طريق الوحي، فلو سلم للقائلين بالإنكار للزم عليه إنكار الرسالة التي أتى بها موسى -عليه السلام- في اليهودية وكذلك الرسالة التي أتى بها عيسى

-عليه السلام- في النصرانية، ولا أظن أن أحدا من المستشرقين الذين ينتسبون إلى رسالة موسى أو عيسى عليهما السلام يسلم بهذا الأمر" (فؤاد، 2001، صفحة 161)، ويمكننا نسبة هذا إلى الذين يُطلَق عليهم رجال الدين أو القساوسة أو الرهبان ممّن هم منتسبون إلى الاستشراق وكانوا قد اشتغلوا على التراث وعلى الوحي الإسلامي، فإيمانهم بمسيحيتهم ومعها اليهودية (باعتبار أن هناك مستشرقين يهود) هو إيمان بالوحي من أساسه، فكيف بهم يؤمنون بوحي المسيحية وكذا وحي اليهودية ولكنهم لا يؤمنون بوحي الإسلام؟ أليس هنا في الأمر تناقض؟ أم أن لهذا الأمر أهداف وغايات أخرى؟ لماذا يُنكِر هذا الصنف من المستشرقين الوحي على النبي محمد ﷺ ولا ينكرونه على ديانتيهم الأخريتين؟

ثم عن الحديث النبوي الشريف وتكذيبهم له فنقول: لا أحد يُنكِر أن هناك أحاديث مكذوبة عن النبي ﷺ، كما أنه لا أحد يُنكِر أن الإسلام دخل عليه أعداء أرادوا أن يكيدوا له ووضعوا أحاديث ونسبوها لنبي الإسلام، لكن هذا لا يعني أن كل الأحاديث التي وصلتنا مكذوبة كما يرى جلّ المستشرقين، كما أنه لا يعني أن علماء المسلمين وخصوصا في العصور القريبة من النبي ﷺ أنهم بقوا مكتوفي الأيدي ولم يفعلوا شيئا، بل ما حدث أنه "سرعان ما وقف الأفذاذ من سلف هذه الأمة الذين كرّسوا حياتهم يطوفون البلاد ويجوبون القفار بحثا عن صحيح السنة، وكشفا عن زائفها، وكان العهد قريبا بالرسول ﷺ وصحابته" (صبره، 1985، صفحة 73)، فهناك العديد من العلماء المسلمين من ضعّفوا أحاديث كثيرة ولا أحد أنكر ذلك، لكن الاشكالية التي وقع فيها المستشرقون هي تكذيبهم للأحاديث كلها جملة وتفصيلا وهذا هو الاشكال.

5. خاتمة:

رأينا كيف هي نظرة المستشرقين للقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة، ورأينا أيضا كيف أرّخوا لهذين المصدرين الأساسيين في الإسلام وكيف راحوا يكذّبونهما ويكذّبون من أتى بهما وهو النبي محمد -ﷺ-، حتى وصل بهما الأمر إلى اتهامه بالصرع والتخيل وغير ذلك من الأوصاف

المسيئة إليه وهي أوصاف لا تليق به حقيقة عليه الصلاة والسلام، وجعلهم ذلك ينكرون الوحي الذي أوحى به الله سبحانه وتعالى عليه؛ لذلك وفي ختام بحثنا هذا أردنا أن ننوه لبعض الأمور فنقول: لقد قام المستشرقون بأعمال ضخمة درسوا بها القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والإسلام ككل، وكانت لدراساتهم تلك مكائد وأهداف وغايات ينبغي على المسلم الحذر منها والتفطن لها، وإذا ما كان الباحث باحثا حقيقيا فإنه ينبغي عليه إذا ما أردنا الحديث عن ما يسمى بالموضوعية في البحث العلمي أن يتحقق من كل الدراسات المتاحة اليوم، بمعنى إذا ما أراد أي باحث إطلاق حكم ما على دراسة ما فينبغي عليه الاطّلاع على تلك الدراسات وتحقيقها وتمحيصها، فقبل أن نقول عن القرآن أو السنة النبوية أي شيء ينبغي علينا الاطّلاع عليهما وعلى كيفية نزولهما وكذا تدوينهما، ثم نرى دراسات المستشرقين تلك هل أصابت فعلا أم لا؟ فلا يخفى علينا حقيقة أهداف المستشرقين تجاه العوالم الإسلامية، ولا يخفى علينا كذلك كيف كان يعتمد عليهم العديد من المستعمرين في الاستيلاء على العالم العربي والإسلامي، لذلك فمعرفة الإسلام تكون من داخل الإسلام لا من مصادر خارج عليه، فالعلم يُعرَف برجاله لا ممّن هم خارجه.

ثمّ إن هناك العديد من الباحثين والمفكرين من العالم العربي والإسلامي ممّن تأثروا بهذه الدراسات (أي الدراسات الاستشراقية للإسلام) وحذو حذو طريقهم، وللأسف أن ينبع مفكر من العالم الإسلامي فيتأثر بالمستشرقين ويبدأ بنقد الإسلام ونصوصه التأسيسية، وتجد منهم من هو ليس متخصصا في الشريعة الإسلامية ولا قارئا أو مطّلعا على الإسلام من داخل الدراسات الإسلامية ذاتها، ومن علمائها ومشايخها وكبارها، وهذا خطأ فضيع أن يُتهم الإسلام أو ينتقد من طرف من هو ليس بمطّلع عليه ولا بأهلٍ للاختصاص فيه.

إن المستشرقين برأيينا وبالنسبة لنا ليسوا مصدرا أساسيا حقيقيا في معرفة الإسلام المعرفة الحقيقية الصحيحة به، ثمّ إنهم قاموا بانتقاد وتوجيه التهم إلى مصادره التأسيسية الأساسية، وهذا لا يُكوّن عند الرجل المسلم سوى التشكيك في معتقده ودينه، ولا يكون

بالضرورة أن هذه الأعمال هي أعمال علمية وتكوّن فعلا روح البحث العلمي عند المسلمين كما يدّعي البعض، بل كل ما في الأمر أنها دراسات الهدف من ورائها تحطيم وتهديم الإسلام والحقائق الإسلامية.

6. قائمة المراجع:

الحاج ساسي سالم، (2002)، نقد الخطاب الاستشراقي، بيروت، دار المدار الإسلامي.

الزيادي محمد فتح الله، (1998)، الاستشراق أهدافه ووسائله، دار قتيبة.

السباعي مصطفى، (ب-س)، الاستشراق والمستشرقون، دار الورق.

الشرقاوي محمد عبد الله، (2016)، الاستشراق وتشكيل نظرة الغرب للإسلام، مصر، دار البشير للثقافة والعلوم.

الغزالي مشتاق بشير، (2008)، القرآن الكريم في دراسات المستشرقين، دمشق، دار النفائس.

النعيم عبد الله محمد الأمين، (1997)، الاستشراق في السيرة النبوية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي.

بن نبي مالك، (1969)، إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، بيروت، دار الإرشاد.

حسين محمد بهاء الدين، (2014)، المستشرقون والقرآن الكريم، الأردن، دار النفائس.

رضوان عمر بن إبراهيم، (1992)، آراء المستشرقين حول القرآن الكريم وتفسيره، الرياض، دار طيبة.

زقزوق محمود حمدي، (ب-س)، الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، القاهرة، دار المعارف.

زماني محمد حسن، (2010)، الاستشراق والدراسات الإسلامية لدى الغربيين، القاهرة، المركز القومي للترجمة.

سعيد إدوارد، (2006)، الاستشراق، القاهرة، رؤية للنشر والتوزيع.

صبره عفاف، (1985)، المستشرقون ومشكلات الحضارة، دار النهضة العربية.

علي محمد اسماعيل، (2000)، الاستشراق بين الحقيقة والتضليل (مدخل علمي لدراسة الاستشراق)، الكلمة للنشر والتوزيع.

فؤاد عبد المنعم، (2001)، من افتراءات المستشرقين على الأصول العقدية في الإسلام، الرياض، مكتبة العبيكان.

فوزي فاروق عمر، (1998)، الاستشراق والتاريخ الإسلامي، لبنان، منشورات الأهلية.